صورة الآخر في الرواية الجزائرية
رواية "طيور في الظهيرة" لـ مرزاق بقطاش أنموذجا

د.نعيمة بوزيدي
جامعة البليدة 2

إنّ الآخر في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض الذات أو الأنا، وقد ساد كمصطلح في دراسات الخطاب سواء الاستعماري أوما بعد الاستعماري، وقد شاع المصطلح في الفلسفة الفرنسية المعاصرة خاصة عند "**جون بول سارتر**" "**وميشال فوكو**" "**وجاك لاكان**".

وتأتي أهمية دراسة الآخر كما جاء في علم النفس اللاكاني من جوهريته الأساسية في تكوين الذات، وتحديد الهوية، وكذلك من إسهامه في تأسيس وتوجيه المنطلق الذاتي الشخصي والقومي والثقافي، فالآخر بالنسبة لـ"**لاكان**" عامل فاعل في تكوين الذات، وعند **سارتر** يساهم في تأسيس وعي الذات الوجودي؛ لأنّ هذا الأخير يتحقق تحت تحديق الآخر، وعند "**فوكو**" هو الماضي الذي يقصيه الحاضر.

ولاشك أن مفهوم الآخر يتأسس على مفهوم الجوهر أي أنّ ثمة سمة أساسية جوهرية تحدّد الذات ممّا يجعل الآخر مختلفا عنها، وبالتالي لا ينتمي إلى نظامها أيا كان[1].

والآخر في أبسط وأكثر معانيه شيوعا يعني شخصا آخر، أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحدة وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة أستطيع أو نستطيع تحديد اختلافي أو اختلافنا عنها، وفي مثل هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر، وإعلاء قيمة الذات، أو الهوية، ويشيع مثل هذا الطرح في تقابل الثقافات خاصة، وهذا ما يسود عادة في الخطاب الاستعماري.

وقد بدأ كثير من الباحثين العرب في توظيفه لكشف تحيّزات الخطاب خاصة الاستعماري وما بعد الاستعماري وفي مقارباتهم للغرب.[2] واختيارنا لرواية "مرزاق بقطاش" "**طيور في الظهيرة**" يعود لمجموعة من الأسباب أهمها:

أنّ الشخصية الروائية في هذا العمل الروائي معبّرة عن واقع الانسان الجزائري، كما أظهرت علاقته بمختلف فضاءاته، فضلا عن تقديمها قراءة سياسية وحضارية لمختلف الأحداث المشكلة لتاريخ الجزائر.

وأنّ رواية "**طيور في الظهيرة**" تصوّر الايديولوجية الاستعمارية بكل أبعادها، فهي تبيح لنفسها كلّ أشكال ووسائل الاضطهاد، من قمع للحريات، وإهانة الشعوب المستعمَرة، واحتقار الأجناس الأخرى.

بالإضافة إلى ما ذكره الروائي الجزائري "طاهر وطار" في مقدمة الرواية، وهو أنّ الأدب الجزائري عبّر عن الحرب التحريرية أحسن تعبير لكن في عالم واحد هو عالم الريف، حتى لكأنّ الريف وحده هو الّذي خاض الثورة، ولكأنّ المدينة ظلت طوال تلكم الفترة نائمة لا تحيا لا سلبا ولا إيجابا، وقد ظل هذا نقطة ضعف في أدبنا لكن هاهو مرزاق بقطاش يسبقهم إلى الوجود، بل يؤذن بميلادهم، إنّ أبناء المدينة بدأوا يعبّرون عن أنفسهم، بدأوا يتحدّثون من صحون المنازل ومن سطوحها وشرفاتها

،بل أكثر من ذلك، بدأوا يحدثوننا عن همومهم، همومهم بالأمس القريب، وهمومهم اليوم.[3] وطبيعة العمل الروائي كونه الأول لصاحبه، ومع ذلك فهو قوي، بل إنّه بالنسبة لما تعوّدنا عليه من أدعياء الأدب أكثر من قوي.[4]

ولأنّ الرواية تستمد موضوعها من التاريخ الماضي الذي يستعاد كتجربة فريدة وعظيمة لا يمكن أن يضاهيها تاريخ آخر، وفي هذا السياق تكون **طيور في الظهيرة لمرزاق بقطاش** إحالة واضحة إلى مرحلة الماضي، فكل الدّلالات المشكلة للنص مأخوذة من الثورة، فقد نشأ "**مراد**" البطل الأساسي للرواية في حي مدني وهو حي باب الواد بالعاصمة، وتشبّع بالثقافتين العربية والفرنسية، لكنّه ظل مخلصا لمرجعه الثقافي التّقليدي العربي الاسلامي مستعدا للإنخراط في صفوف جيش الثورة، متأجج النفس غيرة وحبا للوطن.[5]

إذاً فحضور التاريخ بارز في الرواية، وقد انصبت وضعية الصراع فيه على الشخصية الوطنية في مواجهة الشخصية الاستعمارية، ووضعية الصراع هذه ضرورية للرواية، "لا يمكنها أن تنشأ وتتطوّر وتجد لنفسها حلا بدون توزيع الشخصيات إلى معسكرين متقابلين بتبادلهما التّجاذب والتّنافر، بحيث يتحقق التّوازن والاطّراد المطلوبان في الخطاب الروائي.[6]

وتتمثل الهوية في الوعي الضدي بالآخر،[7] والآخر هو كلّ ما يهدّد الوحدة والصفاء[8] "**فسارتر**" ربط بين الآخر والجحيم وقد ختم مسرحيته"**لا مخرج**" بمقولته المشهورة "الآخرون هم الجحيم".[9]

هذا الآخر الّذي حرصنا على تتبّع ملامحه ورسم صوره من خلال دراستنا لرواية "**طيور في الظهيرة**" **لمرزاق بقطاش:** يمثل الآخر الطبقة البرجوازية الأوروبية المتمثلة في عائلتي "**مرتينز ونوربير**" والبذخ الّذي تعيش فيه هذه الطبقة ظاهر، فقد اشترت زوجة "**مارتينز**" جهاز إذاعة وراحت زوجة "**نوربير**" تعيّرها، وقالت لها بأنّها أوشكت هي أن تكسب جهاز تليفزيون،[10] يحدث هذا في أوائل الخمسينات، وعائلة مراد لا تملك إلاّ قوت يومها البسيط.

والآخر هو السيّد فهو الذي يتّخذ القرار ليرهب به، فبعض العائلات التي تسكن الحي أصرّت على إلقاء القبض على جماعة من فتيان الحي اتّهموا بالاعتداء على عرض فتاة غجرية كانت تبيع القماش للنسوة، ومحاكمتهم حتى يكونوا درسا لغيرهم من فتيان الحي.[11]

ولا يحب الآخرُ العربيَ بل ينقم عليه فـ"**نوربير**" رفع حجرا وقذف به اتجاه "**مراد**"، وكان ينظر ناحية "**فتيحة**" الفتاة التي أحبها مراد بحقد "والخطأ ليس يعود إليه فلعل زوجته، تلك العنصرية هي الّتي أورثته حقدها على العرب إنّها لا تكاد تعير اعتبارا لهم، والويل لمن اقترب من دارها فالكلاب ستكون في انتظاره إن هي لم تلحق به"[12]

ولا يعادي الآخرُ العربيَ فقط وإنّما يعادي حتى المتعاطف معه، فالعائلات الأوروبية التي تسكن الحي تعادي عائلة **جوزي،** وتتمنى لها أن تغادره دون رجعة؛ لأنّ **جوزي** صديق حميم لأطفال الحي، ولا يمكن أن يقول شيئا يمس عواطفهم إنّه ليس مثل "**جورجو**" المالطي و"**نوربير**" الاسباني،[13]والملاحظ أنّ الأسماء التي تنسب الشخصية إلى موطنها نادرة التّوظيف، حيث وظّفت من أجل التّمييز بين حقيقة من كان يتعامل معهم ويحدّثهم.

فقد تعلّم "**مراد**" من "**جوزي**" على سبيل المثال "أن يكوّن فكرة عن الهنود الحمر في أمريكا، وعن الرقصات الاسبانية، والبواخر التي ترسو في ميناء الجزائر،[14] وكان يعمل أيضا على شحذ همم الأطفال هو وأحمد[15]، و ذكر "**مراد**" أنّه لاحظ "**جوزي**" وهو يحرك جسده الضخم يلاعب هذا الطفل، أو يضغط على أصابع آخر حتى يدفعه إلى الصراخ[16]، حتى أنّه

كان يقلّد أغنية دينية يغنيها الأطفال عند حلول المولد النبوي، ويُقلد أغنية جزائرية "فراح ينفخ خديه ويمد شدقيه ويوقع بيده على رأس أحمد، وانفجر الأطفال بالضحك فسرت العدوى بين سكان الحي.[17]

ولا يتصارع الآخر مع العربي فقط، فالأوروبيون يتصارعون فيما بينهم، فالصراع قد نشب بين "**أندريه**" أخ "**جوزي**" ووالده، ففي يوم الأحد الماضي لاحظ التّوتر بين الابن والوالد عندما اصطحب "**أندريه**" خطيبته إلى الدار، لقد أقسم يومها والد "**جوزي**" بأن يطرد "**أندريه**" إن هو تزوج خطيبته المالطية.[18] وهنا تتجلّى همجية هذه الايديولوجية في النزعة العنصرية، واحتقار الأجناس الأخرى، وعندما يمر "**نوربير**" ذلك الاسباني المعتز الذي "كان يبدو عليه الزهو رأسه يهتز بعصبية كعادته في الزقاق مع ابنه"**كلود**" وابنته"**بوليت**" دائما كانت بينه وبين والد "**روني**" عداوة، فمنذ أن صدم "**نوربير**" بشاحنته جدار دار "**روني**" والعداوة تزداد يوما بعد يوم؛ لأنّ "**نوربير**" لم يرد أن يقدّم تعويضات عن الخسارة الّتي تسبب فيها، وقد ابتسم "**مراد**" في قرارة نفسه وهو يشاهد والد "**روني**" ينكمش على نفسه غيرة وكمدا، ثم يبصق على الأرض فيبادر "**نوربير**" ويبصق ناحيته،[19] ويصرخ والد "**روني**" بأعلى صوته واصفا "**نوربير**" بأنّه خنزير كبير، ويبادره هذا بجواب فاحش يجعله ينكمش على نفسه،[20] وعندما اقترب "**نوربير**" من والد "**روني**" انطلق في السب والشتم، ورفع يده لينهال بها على رأس والد "**روني**"[21] وهذا يعكس الأخلاق المتدنّية التي تميّز بها "**نوربير**" الذي يهاجم الضعفاء ويعتدي عليهم،كما يصوّر المشهد بذاءة لسان هؤلاء الأوروبيين، فالأخلاق التي ظهروا بها تفضح نفاقهم، وكانت والدة "**روني**" تصرخ في الداخل، وزوجة "**نوبير**" تهرول من بيتها إلى آخر الطريق، وهي تسب وتشتم بصوت حاد. وتتوسع دائرة الصراع بين الأوروبيين فـ"**مارتينيز**" الاسباني عدو "**نوربير**" هو الآخر تقدّم بعصاه ليهوي بها على "**نوربير**" الذي كان يهدّد ويتوعد ويقسم بأنّه لن يقدّم أيّ تعويض عن الخسارة التي تسبب فيها بشاحنته، فالآخر لا يعترف بأخطائه، وليس مستعدا لتعويض الخسائر الّتي تسبب فيها، وبهذا فقد كشف "**نوربير**" أمام "**مراد**" الزيف الّذي استقر في ذهنه بشأن الأوروبيين،[22] فالعائلات الأوروبية هي كغيرها من العائلات الأخرى في العالم، فهي ترتكب الأخطاء، وليست بعيدة عن النقص كما شاع، فالأوروبيون يتخاصمون فيما بينهم، فلقد شبعوا هم تفرجا على ما يحدث بين العرب في هذا الحي، لم لا تنقلب الآية ويصير الأوروبي مدعاة للتّفرج عليه؟[23]ويتصارعون فيما بينهم لقد سمع الكثير عنهم من المدح، ولكن هو ذا الآن يرى بأم عينه ما يجعله يكذّب كل الأقاويل التي سمعها عنهم[24]، فالأوروبيون لن يكونوا أبدا قدوة للعرب والمسلمين فما ذكر من مشاهد يكشف عن زيف الحضارة الغربية، وعندما مسح مراد كتفه بكتف فتيحة وسألها إذا ما كانت تتصوّر مثل هذا النوع من العلاقات بين الاوروبيين، فأجابته بأنّ معلمتها في المدرسة حدّثتها طويلا عن أخلاق الأوروبيين، وكيف يتعيّن على العرب أن يأخذوا بها، ولكنّها كانت تشعر في قرارة نفسها بأنّ الحقيقة ستنكشف ذات يوم.[25] وبهذا الإدراك البسيط للواقع استوعب "**مراد**" حقيقة الآخر، وحطّم الكاتب الايديولوجية الاستعمارية.

والآخر في رواية "**طيور في الظهيرة**" مستعمرون فرنسيون ذُكروا في المتن الروائي على مراحل متعاقبة وهم يجسّدون الوظيفة المماثلة لرجال الدرك والأمن وهي بسط نفوذهم على الشّخصيات المواجهة والتي نعني بها الشخصيات التي تقوم بما لا يتماشى ومصالحهم "لقد قيل له دائما إنّهم مستعمرون احتلوا البلاد بالقوة، وسلطات عسكرية ألقت القبض على عدد من سكان الحي بدعوى أنّهم يساعدون المتمردين في الجبال وحتى في المدن، وليس من الغريب إذن أن يزداد عبوس الشرطة وحقدها على هذا الحي.[26]

وعساكر يُخرجون الأطفال من ديارهم ويأخذونهم نحو الشاحنات حتى يسهل عليهم نقلهم إلى المدارس لتعلّم اللغة الفرنسية، وبين الفينة والأخرى كان يسمع نتفا من سُباب كان يرسلها أحد العساكر.[27]

ورجال الشرطة الذين استعملوا الغجرية كوسيلة لكي ينتقموا من الحي وأبنائه، ومن العرب أجمعين، فقد سرت عدوى الضحك بين رجال الشرطة كلّهم أمام تعرّف الغجرية على الفتية والإشارة إلى مكان اغتصابها، وهم على استعداد لإطلاق النار في أيّة لحظة، وكان أحد رجال الشرطة في داخل السيارة الرمادية يدفع **بعبد الله** (الفتى المتهم)[28]

والآخر في رواية بقطاش ليس الفرنسي فقط "**فروني**" المالطي القذر ـ كما وصفه الكاتب ـ قد قدّم هو الآخر مساعدته للشرطة لكي تلقي القبض على الفتيان الأربعة المتّهمين في قضية هتك عرض الفتاة الغجرية "إنّه يعمل على حماية الفرنسيين مع أنّه ليس فرنسيا، فهو مالطي كمعظم العائلات الأوروبية الأخرى التي تسكن الحي"،[29] والسرور كان باديا على وجه "**روني**" فهو سيرى بعد قليل كيف يكون رد فعل أبناء الحي جميعهم أمام الشرطة وهي تستنطق الفتيان الأربعة، إنّه لا يبادر إلى عمل إلاّ وحققه، لقد ازداد حقده على سكان الحي منذ أن عاد ذات مساء من عمله، واصطدم في العتمة بخيط من السلك كان مشدودا على عرض الطريق، انجرحت يومها ذقنه، واضطر إلى الذهاب إلى المستشفى لكي يخيطوا له الجرح ومنذ ذلك اليوم وهو يحاول أن يستفز فتيان الحي حتّى يردوا له المثل بالمثل ليلتجئ بعدها إلى الشرطة، أو إلى السلطات العسكرية مباشرة.[30] وكان "**روني**" يكره "**جوزي**" فقد التفت مراد ناحية "**روني**" فأبصره يحدّق في "**جوزي**" باشمئزاز، ويومئ في ذات الوقت إلى أخيه "**جورجو**" بطريقة يحقّر بها من شأن "**جوزي**"، وأدرك "**مراد**" من ايماءات "**روني**" تلك أنّه يكره "**جوزي**" كراهية شديدة[31]؛ لأنّه لم تكن له تلك النظرة الاستعلائية والعنصرية نحو الأهالي بل كان يميل إلى الأهالي ويتخذ موقف الدفاع عنهم، ويتحمّل الأذى من أجل هذا الموقف المسالم، وكثيرا ما كان "**روني**" ينهر مراد ويصفه باللقيط.[32]

وسكان الحي لا يحبون "**روني**" فعندما غادر هذا الأخير مكانه مخلّفا وراءه أخاه، ونزل صوب الساحة الصغيرة يصافح الشخص الأنيق الغاصب والغجرية تعالت التعاليق تصدر عن هذا الشخص أو ذاك وتلعن "**روني**" وتتوعّده، وقال مراد في ذات نفسه إنّه قد حان الوقت لوضع حد لتصرّفاته، ولكل العائلات الأوروبية التي تؤيده؛ لأنّ كلامهم عبارة عن شتم وسب للعرب.[33]

وكان "**روني**" الوحيد الّذي لم يندفع مع الشرطة بل إنّه تمالك نفسه، واقترب من "**نور الدين**" وصفعه ثم أخذ يخاطب الشّخص الأنيق بكلمات سريعة[34] بل كان يصرخ بأعلى صوته بالعربية الدّارجة "إننا سنقتلهم جميعا هذا هو جزاؤهم"[35]

فالآخر مستبد قامع للحريات "فبعض الأوروبيين الّذين يسكنون الحي قد بدأوا يتوافدون على الرّبوة، والتّحدث أمامهم بكل حرية أمر صعب"،[36] والتّجمعات ممنوعة حتى سكان حي باب الواد لم يطلوا من نوافذهم[37] والعنف من الآخر واقع على الكبير والصغير فوالد "**روني**" خرج وانتهر الأطفال ثم هدّد بإطلاق سراح كلبه الأسود الضخم إن هم لم يبتعدوا عن الزقاق عندما كانوا يتقاذفون الكرة في أحد أزقة الحي[38] وكان يظل واقفا قرب داره يرصد الأطفال، والحركات في البيوت المجاورة،[39] وحدث أن دخل الدار وخرج بعد ثوان ومعه كلبه، واضطر "**مراد**" وجماعة الأطفال إلى أن يطلقوا العنان لأرجلهم[40] فقد شكّلت ممارسات الاستعمار المختلفة الظلم والقهر والاستبداد. والآخر مخيف فـ "**مراد**" كان خوفه مزدوجا والد "**روني**" من جهة ونظرات"**نوربير**" ذلك الإسباني المغتر من جهة ثانية.[41] والآخر حقود "إنّه لأول مرة يشاهد

"مراد" هذا الشكل من الحقد مرتسما على وجه عسكري فرنسي، فقد تخيّله **مراد** وهو يهجم على الدّيار ويخنق الأطفال، وتصوّره وهو يشحذ سكينا كبيرا كذلك السكين الّذي يذبحون به كبش العيد كلّ سنة[42].

ويعلم عنا الآخر كل شيء، فالأوروبيون يراقبون كلّ صغيرة وكبيرة، [43] "فوالد "**روني**" يعلم عن مراد وعن عائلته كلّ شيء، ولذلك فهو سيقود العسكري قدما إلى دارهم، ويدله عليه دون تعب، [44] لكنّه في الحقيقة جبان خواف لم يجرؤ يوما على توجيه اللّوم أو التّهديد إلى أحمد "أتراه يخاف من والده الّذي يملك بندقية صيد، أو الفضل يعود لأحمد؛ لأنّه يعرف كيف يتصرّف مع المالطي، وقد استطاع أن يتحادث معه عدة مرات في شؤون عديدة دون أن يثير غضبه أو سخطه".[45]

لا يعترف الآخر إلا بالقوي في أيّ مجال من مجالات الحياة، وبالمقابل فهو غبي، فالعائلات الأوروبية التي تسكن الحي لم تنفطن لما يجري حولها[46]، فمراد عندما شاهد العساكر يتنقلون بين القبور قال عنهم لعلّهم يبحثون عن الأسلحة، يالهم من أغبياء حتى العساكر لم يعرفوا أنّ اليوم هو يوم أول نوفمبر.[47]

والآخر لا أخلاق له "فالبعض منهنم كثيرا ما يصطحبون معهم العاهرات، ويتمركزون في طرق من الغابة في بعض الاحيان[48] ما جعل "**مراد**" يتخيّل الفرنسي آخر الأمر وهو مذبوح من قفاه تتدلى جثته من شجرة، المهم هو أن يذبح المجاهدون ذلك العسكري الذي أنزل الرعب على نفسه،[49] وكان ينظر إليه دائما بقسوة معهودة.

ويسعى الآخر جاهدا إلى القضاء على لغتنا وطمس هويتنا؛ لأنّه يعلم أنّ العالَم لا يستمع إلى أمة لا تتحدث بلغتها.[50] فاللغة هي مرآة صادقة تعكس التاريخ والبنية الاجتماعية للأفراد، فهي روح الشعب وسمة من سمات البنية الثقافية المتناقلة عبر الأجيال والمميّزة للشخصية الوطنية.[51]

والاحتلال الفرنسي أول ما ركّز في سياسته الاستعمارية، منذ بداية الاحتلال، هو محو الشخصية الوطنية للشعب الجزائري في لغته العربية، ومنه القضاء على التّراث الثقافي والحضاري لهذا الشعب[52] واللغة من أهم وسائل الارتباط الروحي بين أفراد أي مجتمع وهذا ما يفسّر حرص الدولة الاستعمارية على نشر لغاتها؛ لأنّها تكتسب بهذا الغزو اللغوي ميولا وارتباطا يفسح لها المجال لنشر ثقافتها ومقومات حضارتها، **ف "مراد"** وحده من كان يعرف اللغة العربية "أما غيره فدراستهم كلّها باللغة الفرنسية[53] وهذا مايؤكد محاولة الآخر فرنسة الشعب الجزائري، وإدماجه في ثقافته، حيث نجد أنّ أولى توصيات قادة الاحتلال الفرنسي "علموا لغتنا الفرنسية وانشروها حتى تحكم الجزائر فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة.[54]

وتجلّت نظرة الآخر من خلال نظرات معلمة الفرنسية الحاقدة الّتي بدأت تثير خوف مراد وحقده معا، وما بدا عن المعلمين والمعلمات من حركات ساخرة تستصغر من شأن المدير الجزائري، وتعيب عليه نزوله بين التلاميذ بدلا من إصدار أمر صارم عندما قرروا الإحجام عن تعلّم اللغة الفرنسية.[55] والآخر شرير يموت غيرة عندما يرى واحدا من أطفال الحي وقد ارتدى بدلة جديدة، فوالد "**روني**" كان يموت حقدا وهو يشاهد العشرات من الأطفال يخرجون من ديارهم، وعليهم ألبسة جديدة، يستقبلون بها العام الدراسي، فلو استطاع أن يحرق الحي كلّه لفعل الآن دون تردد، ولن يجد من الشرطة إلا نصيرا ومؤيّدا، [56] وكان يقف حاجزا أمام سعادة "مراد" فوالد "**روني**" سوف يظل حاجزا بينه وبين فتيحة لكأنّه على موعد معه دائما.[57]

ويختلف الآخر عنا في عقيدته فمقدّسات الآخرين عادة ما تقاس من منظور مقدّسات الأنا[58] فـ "**الآخر**"كافر ونحن مسلمون، الآخر يأكل لحم الخنزير ونحن لا نأكله هناك فرق[59]، و"**روني**" عندما التفت إليه مراد، وكان قميصه مفتوحا على صدره، كانت أصابعه تعبث بصليب صغير في رقبته[60]، والعجوز التي تطل كل صباح من أحد نوافذ الكنيسة، لكأنّها توجد هناك كي تترصّد شعور الأطفال نحو الصليب، ولقد رآها "**مراد**" مرة وقد ثارت ثائرتها بعد أن عمد إلى التّبول قرب الكنيسة . لم تستطع أن تقبض عليه لذلك قذفته بحجر غليظ،[61] وعائلة "**روني**" أكلت ذات يوم قطتها "كان والد "**روني**" قد أمر ابنه بأن يقضي على أحد الأرانب ليعدّوه للغذاء، لكن "**روني** تحايل على قطتهم السمينة وقتلها ببندقية صيد، ثم سلخها وقدّمها إلى والدته على أنّها أرنب، وأكلوا القطة[62]

وكانت اليهودية القميئة الحاقدة "فوق المصطبة وهي توجّه إلى التلاميذ نظرات حاقدة، كانت تخاطبهم بصوت حاقد: لِمَ لا تريدون تعلّم اللغة الفرنسية؟ إنّكم جهلة، لِمَ هذا العناد؟ وكانت تنهرهم بعنف وعندما أجابها مراد بأنّه لا يحب الفرنسية، لم يكمل جملته حتى كانت صفعة قوية تنهال على خده فيسيل الدم من أنفه.[63] وهذا يعكس استحكام السيطرة الأجنبية على الجزائر من خلال فرض اللغة الفرنسية، وهو ما يصوّر مضايقة ومحاصرة الادارة الاستعمارية للغة العربية في سائر الإدارات الجزائرية، ومعاهد التّعليم على اختلاف أنواعها أثناء الاحتلال، وفي المقابل اكتساب اللّغة العربية دلالتها القدسية كونها لغة القرآن والحديث، فهي جزء لا يتجزأ من حقيقة الاسلام.[64]

وكان بعض الآخر يدين بديننا، ويحب لغتنا فأحد الجنود السنغاليين" كان يبتسم، وسأل "مراد" إذا كان يحفظ سورا من القرآن الكريم والجنديان يحفظان حزبا كاملا من القرآن،[65] وأصحاب الندوب من السنغاليين مسيحيون وهم شديدو القساوة، أما الّذين لا ندوب لهم فهم مسلمون.[66]

وليس الآخر مستعمرا فقط ، و"ليس بالضرورة هو البعيد جغرافيا، أو صاحب العداء التاريخي، أو التّنافس الدائم فقد توصّلت الماركسية إلى الصراع الطبقي في المجتمع الواحد،[67] وهو في رواية "**طيور في الظهيرة**" جارهم العجوز الذي باع الدار لجدة "مراد" لكنّه رفض توقيع عقد البيع مع أنّه قبض المبلغ دفعة واحدة، فوالده الّذي يعمل طول العام في البحر يدفع كلّ ستة أشهر مبلغا ماليا للمحامي الذي وكّله، ذلك أنّ الدار التي يسكنونها محل جدال منذ عشرين سنة على الأقل فيما روت له والدته،[68] واتّسعت العداوة إلى أبناء الجار فقد حرّم "مراد" على نفسه أن يحادث أبناءه، أو يطرق بابه، ويزداد صراعه مع الجيران ما دفعه إلى الحقد على البعض منهم، بل إنّه صار يكره فلانا أو فلانا بمجرد ذكر اسمه، وبلغ به الأمر أنّه صار ينفر من اسم محمد لولا أنّ أمه ردّته إلى طريق الصواب، فلقد لاحظ أنّ صديقه محمدا الّذي يسكن في الدار السفلية بالزقاق لا يكف عن السب والشتم يوميا، لذلك وقع في روعه أنّ كلّ من يسمى محمدا إنّما هو شخص لا أخلاق له وأنّ الله سيلقي به في النيران عندما تقوم النيران،[69] وهنا لم يراع الكاتب التوافق بين الاسم والدّور الذي تلعبه هذه الشخصية في الأحداث فقد وظّف اسم **محمد** توظيفا سلبيا، فهو شخصية شريرة مؤذية يبدي "**مراد**" كرهه لها، بخلاف ما كان يجب أن يحدث، وإذا كان الاسم لا يستعمل لمسميات تحمل الدّلالة ذاتها في بعض الشخصيات، فإنه يستعمل في بعض الأحيان بشكل متناسق في الدّلالة مع الشخصية، وهذا ما يظهر مثلا من خلال اسم "أحمد" فالشخصية التي تسمى "**أحمد**" هي شخصية تتّصف بالقيادة وتحظى بثقة الأطفال الذين يشهدون لها بالرّيادة، ويستشيرونها في الكثير من أمورهم وهذا ما نستشفه من قوله "سوف يأتي "أحمد" ويقود العملية وسوف يتبعه"**جوزي**" ويقوم بالتنسيق، [70] فأحمد هو الزعيم بالنسبة لهم جميعا، وليس لأحد غيره أن يقودهم [71] فهذا المقطع يحيلنا إلى الدلالة الواضحة التي يحملها هذا الاسم،

والتّناسق الواقع بين الاسم والمسمى إذ يحمل هذا الاسم دلالة العروبة والاسلام. ورفض "مراد" لقيادة أخرى غير قيادة "أحمد" هو تمسّك بالهوية العربية والاسلامية، ورفض للسيطرة الأجنبية واستحالة محو الاسلام من هذه المنطقة وتعويضه بديانة أخرى.

والآخر هو العم الحاضر بجسمه ولكن الغائب بفعله بشرب الخمر، وبعدم جدوى حضوره؛ لأنّه لا يقدم للأسرة أيّ نفع يذكر، ففي المرة الوحيدة التي تذكر الرواية أنّ العم قد عاد فيها إلى البيت فإنّه كان سكرانا ولكن قد بقي مراد على حبه لعمه رغم أنّه ضربه في هذه المرة الوحيدة التي عاد فيها إلى البيت دون ذكر لسبب معيّن لهذا الضرب إلا سبب السكر، فيحتفظ مراد بصلته مع عمه وهو يكره هذه الصفة فيه؛ لأنّه يعرف أنّ الخمر حرام، ويعتقد أنّ الثورة لابد أن تمنع شربها لهذا السبب.[72]

أما السينغاليون فلا يمسون أحدا بسوء ولكنّهم مخيفون فعلا، لقد سمع "مراد" كثيرا من الأحاديث تنسج حول السنغاليين إنّهم يثورون لمرأى الدماء[73]

نستنتج تنوع صورة الآخر في هذا العمل الروائي فهو الاستعمار الفرنسي الذي يجب أن يهزم، وبعض سكان الحي من الاوروبيين الّذين كانت لهم نظرة استعلائية وعنصرية، وهو الآخر الذي كان يميل إلى الأهالي ويتّخذ موقف الدفاع عنهم، ويتحمل الأذى من أجل هذا الموقف المسالم، ومن هؤلاء "**جوزي**" الذي كان يتكلم اللغة العربية، وينشد أناشيد الجزائر الدينية والوطنية، ولا يكاد يفارق أقرانه من الأطفال، والسنغالي المسلم الذي وجد مراد نفسه مشدودا إليه عندما أعاد إليه البطاقة الوردية وأشار إلى رفيقه بالذهاب.[74] "فهو جارهم العجوز الذي باع الدار لجدة "مراد" لكنّه رفض توقيع عقد البيع مع أنّه قبض المبلغ دفعة واحدة، هو العم الحاضر بجسمه ولكن الغائب بفعله بشرب الخمر.

الهوامش:

[1]. ميجال الرويني، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2007، ص21

[2]. ينظر المرجع نفسه، ص23

[3]. ينظر مقدمة رواية مرزاق بقطاش طيور في الظهيرة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص9

[4]. نفسه، ص9

[5]. علال سنقوقة، اشكالية السلطة في الرواية العربية الجزائرية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ،1997، ص37

[6]. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص279

[7]. محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيّل صور الآخر في الفكر العربي الاسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص12

[8]. ميجال الرويني، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي،مرجع سابق، ص21

[9]. المرجع نفسه، ص22

[10]. مرواق بقطاش، طيور في الظهيرة، ص60

[11]. المرجع نفسه، ص17

[12]. ينظر المرجع نفسه، ص55

[13]. المرجع نفسه، ص19

[14]. المرجع نفسه، ص 19

[15]. المرجع نفسه، ص22

[16]. المرجع نفسه، ص23

[17]. المرجع نفسه،ص25

[18]. المرجع نفسه، ص20

[19]. ينظر المرجع نفسه، ص54

[20]. المرجع نفسه، ص55

[21]. المرجع نفسه، ص58

[22]. ينظر المرجع نفسه، ص60

[23]. المرجع نفسه، ص55

[24]. المرجع نفسه، ص58

[25]. المرجع نفسه، 59

[26]. المرجع نفسه، ص28

[27]. المرجع نفسه، ص77

[28]. ينظر المرجع نفسه، ص29

[29]. المرجع نفسه، ص21

[30]. المرجع نفسه، ص24

[31]. المرجع نفسه، ص25

[32]. المرجع نفسه، ص74

[33]. ينظر المرجع نفسه، ص28

[34]. المرجع نفسه، ص31

[35]. المرجع نفسه، ص31

[36]. المرجع نفسه، ص24

[37]. المرجع نفسه، ص108

[38]. ينظر المرجع نفسه، ص33

[39]. المرجع نفسه، ص35

[40]. المرجع نفسه، ص37

[41]. المرجع نفسه، ص44

[42]. المرجع نفسه، ص49

[43]. المرجع نفسه، ص71

[44]. المرجع نفسه، ص49

[45]. المرجع نفسه، ص35

[46]. المرجع نفسه، ص38

[47]. ينظرن المرجع فسه، ص112

[48]. المرجع نفسه، ص39

[49]. المرجع نفسه، ص39

[50]. أحمد بن نعمان وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، سلسلة المستقبل العربي،"46"مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت2005، ص7

[51]. رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1969، ص37

[52]. وهيبة الجوزي، دور اللغة في تشكيل شخصية الفرد، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، منشورات جامعة سعد دحلب البليدة، العدد الثالث، 2010، ص191

[53]. ينظر المرجع نفسه، ص53

[54]. المرجع نفسه، ص192

[55]. مرزاق بقطاش، طيور في الظهيرة، ص66

[56]. المرجع نفسه، ص54

[57]. المرجع نفسه، ص71

[58]. نجيب الحصادي، جدلية الأنا واللآخر، الدار الدولية للنشر والتوزيع،القاهرة، ط1، 1996، ص89

[59]. مرزاق بقطاش، طيور في المدينة، ص36

[60]. ينظر المرجع نفسه، ص27

[61]. المرجع نفسه، ص27

[62]. المرجع نفسه، ص37

[63]. المرجع نفسه، ص67

[64]. علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة، ط3، مكتبة نهضة مصر ،1957، ص104

[65]. مرزاق بقطاش، ص79

[66]. المرجع نفسه، ص74

[67]. الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية،الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، بيروت، لبنان، ط1،1999، ص111

[68]. نرزاق بقطاش، ص34

[69]. المرجع نفسه، ص34

[70]. المرجع نفسه، ص87

[71]. المرجع نفسه، 115

[72]. المرجع نفسه، ص63

[73]. المرجع نفسه، ص50

[74]. المرجع نفسه، ص55